قصائد تكريم مطران

فى الميزان

للأســـتاذ على متولى صلاح

كان وفاء كريماً من أدباء العربية وعلية رجالها ، وكان ديناً استحق الوفاء والأداء لصاحبه منذ زمن سحيق ، وكان تكريماً أدنى ما ينبغى أن يكون ، وأقل ما يبتغى أن يقدم لشيخ الشعراء وأستاذهم وإمامهم ورائدهم خليل مطران .

نعم ... كان هذا التكريم — على روعته وجلاله — بعض ما ينبغى لهذا الشيخ الوقور جزاء ووفاقاً لما قدم للشعر العربى من جهد كبير متواصل ، ولما قدم لشعراء العرب من مناهج وطرائق وراد لهم من مجاهل كانت محجبة مستخفية مطوية ، إلى أن تكشفت لعبقريته ، وتفتحت لوحيه ، وأشرقت على يديه ...

ولقد عرف الناس ما كان فى هذه الاحتفالات التى تتالت وتعاقبت أياماً ثلاثة ، وقرأوا كل ما فيها من خطب وما أنشد فيها من شعر ، وشاهدوا حشود الناس تسعى من مصر وشقيقاتها إلى الاحتفال فى نهضة كريمة ووفاء شديد ، فى زمن عز فيه الوفاء وغاض ماء الخير .

ولقد كان موكباً أدبياً فذاً متفرداً ، تكلم فيه الأدباء الكبار والشعراء الكبار ، وترجموا الرجل وآثاره ترجمة وافية مستفيضة وفصلوا القول فيه وفى فنون أدبه تفصيلا ، ودرسوا آثاره جميعاً دراسة لا زيادة لمستزيد عليها ، فكان سجلا أدبياً ، وكان سفراً أدبياً رائعاً حقاً ...

ونحن نجد أن من تمام هذا السجل ومن كمال هذا السفر أن يقول النقد الأدبى فيه كلمته ، وأن يزن الميزان الأدبى محتوياته بميزانه العادل الدقيق ، فذلك أدنى إلى أن يبلغ هذا السفر غايته ، ويستوفى كماله !

ونحن — من جانبنا وعلى سوانا أن ينهض بالباقى ! — آخذون فى كلمات متتابعة فى وزن وعرض الشعر الذى قيل ، ووسمه فى ميزان النقد الذى يعلم الله براءته من الهوى ، وخلوصه من الغرض ، وبعده عن الميل أو الانحراف عن الحق ...

ولقد أنشد فى هذه الاحتفالات فحول من شعراء العرب فى مصر والعراق ولبنان هم أعيان الشعر وأعلام الأدب فى بلادهم ، وإن خليل مطران لقمين بأن يقول فيه هؤلاء ، عسى يتمداحهم والإطراء منهم ...

وكان أول هؤلاء الشعراء الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فألقى قصيدة مثلثة القافية — وهو نوع كان العقاد يكثر منه أيام صدر شبابه الأول — قاربت الخمسين بيتاً تضمنت وصف الأستاذ المحتفل به وصفاً دقيقاً شاملا محيطاً ألم فيه بجميع خصائصه وجميع سماته ، بل وجميع قسماته ، لم يترك دقيقة من دقائقه ، ولم يدع خلجة من خلجات نفسه ، ولا همسة من همسات قلبه ، ولا خطرة من خطرات فؤاده ... وتلك الإحاطة الشاملة ، والإفاضة الكاملة هى مزية العقاد الكبرى فى كل ما يكتب وما يتناول وما يصف .

ولقد زخرت قصيدة العقاد — كالمهد به دائماً — بالمعانى البكر المستحدثة التى يزخر بها كل ما ينشىء ويكتب ويفيض بها كل ما يخرج للناس !

ولعلى لا أجد من لا يرى الجمال غاية الجمال ، والمعنى البكر غاية البكورة — إن جازت هذه العبارة ! — فى قول العقاد عن مطران إنه « محراب القريض » ! وفى قوله ممدداً سجاياه الكريمة :

ماذا أعدد من سجا ياك الحسان وهن شتى
أدباً وعرفاناً وآلا ء محببة وسمتا
وإذا أطلت فغاية الإ طراء أنك أنت أنتا

وأى طرافة وجدة واستحداث أبعد من قوله :

أنطقت بالعربية الـ ـفصحى معاجم شكسبير
ونقلتهم نقل الأما نة فى الكبير وفى الصغير
بدلت فى لغة اللسا ن ... ولم تبدل فى الضمير !

ولم ينس العقاد أن يعرض فى قصيدته لما خدم مطران به التمثيل والاقتصاد ، ولما سبق به من التجديد والتحرر من ربقة القديم تحرراً لطيفاً ليناً ليس بينه وبين تجديده كمال الانقطاع وتمام الانفصال ، ولكنه تجديد وئيد رفيق هين يأخذ من القديم أبهاه ومن الجديد أزهاه ، ويرتشف من كل بحر قطرة ، ويقطف من كل بستان زهرة ، فيستوى للناس بعد ذلك أدباً مشرقاً رائعاً يملك عليهم ألبابهم وهواهم ومقولهم ... نعم فإن مطران كان ذلك المجدد ، وإنه بحق للحلقة المفقودة ، بل الحلقة المنشودة بين المجددين !

(للكلام بقية)

على متولى صلاح